137233 ـ لماذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يخافون من ربهم مع تبشيرهم بالجنة ؟

السؤال

لماذا كان الصحابة المبشَّرون بالجنة يخافون الله أشد الخوف ، على الرغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشرهم بالجنة ، بل الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه كان أخوفهم؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولاً:

لا شك أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هم خير هذه الأمة وأفضلها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

ومِن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنَّة , وما اتفق عليه أهل السنَّة والجماعة من جميع الطوائف : أن خير قرون هذه الأمة في الأعمال ، والأقوال ، والاعتقاد , وغيرها من كل فضيلة : أن خيرها : القرن الأول ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه , وأنهم أفضل من الخلَف في كل فضيلة ، من علم وعمل ، وإيمان ، وعقل ، ودين ، وبيان ، وعبادة , وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل ، هذا لا يدفعه إلا مَن كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام , وأضله الله على علم ، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : " مَن كان منكم مستنّاً فليستنَّ بمن قد مات ؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد أبرُّ هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم " .

وما أحسن ما قال الشافعي رحمه الله في رسالته : " هم فوقنا في كل علم ، وعقل ، ودين ، وفضل ، وكل سبب ينال به علم ، أو يدرك به هدى " .

" مجموع الفتاوى " (4 / 157 ، 158) .

ثانياً:

عبادة الله تعالى تتضمن الخوف ، والرجاء ، والمحبة له سبحانه تعالى ؛ وهذا هو كمال الإيمان .

قال ابن القيم رحمه الله :

وسبب هذا : اقتران الخوف من الله تعالى بحبّه ، وإرادته , ولهذا قال بعض السلف : " مَن عبد الله تعالى بالحب وحده : فهو زنديق , ومن عبده بالخوف وحده : فهو حروري – أي : من الخوارج – , ومن عبده بالرجاء وحده : فهو مرجئ , ومن عبده بالحب والخوف والرجاء : فهو مؤمن .

وقد جمع الله تعالى هذه المقامات الثلاثة بقوله : (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَه) الإسراء/ 57 ، فابتغاء الوسيلة هو محبته ، الداعية إلى التقرب إليه ، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف , فهذه طريقة عباده ، وأوليائه .

" بدائع الفوائد " (3 / 522) .

ثالثاً:

لا يستغرب أن يكون الصحابة أشد الناس خوفاً من الله ، فكلما ازداد العبد إيماناً : ازداد خوفه من الله ، ألا ترى أن الله تعالى أثنى على أنبيائه ، ورسله بهذه الصفة ، قال تعالى : (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) الأحزاب/ 39 ،

وقال عن الملائكة الكرام : (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) الأنبياء/ 28 ، وقال : (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) النحل/ 50 .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالمَلإِ الأَعْلَى وَجِبْرِيلُ كَالحِلْسِ البَالِي مِنْ خَشْيَةِ الله عزَّ وَجَلَّ) رواه الطبراني في " الأوسط " (5 / 64) ، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (2289) .

والحلس البالي : الثوب البالي .

وهكذا كان حال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد قال عن نفسه : (إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا) رواه البخاري (20) ومسلم (1108) .

قال ابن القيم رحمه الله :

والمقصود : أن الخوف من لوازم الإيمان ، وموجباته ، فلا يتخلف عنه ، وقال تعالى : (فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ) المائدة/ 44 , وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه ، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم : (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) الأنبياء/ 90 ، فالرغَب : الرجاء , والرغبة ، والرهَب : الخوف ، والخشية .

وقال عن ملائكته الذين قد أمَّنهم من عذابه : (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) النحل/ 50 ، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية) ، وفي لفظ آخر : (إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقي) – رواه مسلم ـ ، وكان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء – رواه أبو داود والنسائي ، وصححه الألباني في " صحيح أبي داود " ـ .

وقد قال تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فاطر/ 28 ، فكلما كان العبد بالله أعلم : كان له أخوف ، قال ابن مسعود : وكفى بخشية الله علماً .

ونقصان الخوف من الله : إنما هو لنقصان معرفة العبد به ؛ فأعرف الناس : أخشاهم لله , ومن عرف الله : اشتد حياؤه منه ، وخوفه له ، وحبه له , وكلما ازداد معرفة : ازداد حياء ، وخوفاً ، وحبّاً ، فالخوف من أجلِّ منازل الطريق , وخوف الخاصة : أعظم من خوف العامَّة , وهم إليه أحوج ، وهم بهم أليق ، ولهم ألزم .

" طريق الهجرتين " (423 ، 424) .

فعلى ذلك فلما كان الصحابة أعلم ، وأتقى لله ، وأعرف به : استلزم ذلك عظم خوفهم منه تعالى ، مع الرجاء ، والمحبة ، وهكذا حال الأنبياء الذين هم أعرف ، وأعلم ، وأتقى لله تعالى من غيرهم من الناس .

ويمكن تلخيص أسباب خوف النبي صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الكرام ممن بشِّر بالجنة ، بما يلي :

1. أنهم عرفوا معنى عبادة ربهم تعالى ، وكان خوفهم من الله تعالى هو تحقيق لركن من أركانها ، مع تحقيق ركني الرجاء ، والمحبة .

2. أنهم كانوا علماء بالله تعالى ، ومن كان بالله أعلم كان منه أخوف .

3. بحثاً عن مزيد ثواب ، وعظيم أجر ، من ربهم تعالى ، قال تعالى : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) الرحمن/ 46 .

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا وإياكم من أهل الخوف ، والرجاء ، والمحبة .

والله أعلم